9

القواعد الخفية للمحادثات اليومية

حِكَم بول غريس Paul Grice's Maxims:

في سنة 1967م، ألقى الفيلسوف وعالم المنطق البريطاني بول غريس محاضرة في جامعة هارفرد، حاول فيها أن يصنع للمحادثة ما صنعه إقليدس للهندسة وأعني: تدوين البديهيات التي تتبعها كل الأمور الأخرى. ويعني هذا القول أن غريس صاغ أولاً لائحة بالمبادئ العامة التي تحكم نقل معلومات ناجح بواسطة المحادثة، ثم استخدم مبادئه ليظهر كيف أننا غالباً ما نقول شيئاً ونعني شيئاً آخر.

ربما كنت متحمساً أكثر مما ينبغي عندما ربطت مبادئ غريس للمحادثة ببديهيات إقليدس. فقد كان غريس يعي مثلنا جميعاً أن المحادثات الإنسانية بعيدة جداً عن دقة فرضيات وبراهين هندسة إقليدس.

لكن المحادثات ليست تماماً حرة وسهلة كما تتصور في البداية، لقد تبين أن مبادىء غريس العامة كانت متبصرة وقوية جداً.

وبما أن غريس كان يجري ملاحظات على المحادثات الناجحة عِوَضاً من أن يحاول تزويد قواعد يفترض أن يتبعها المشاركان في المحادثة، لم يُسم

ملاحظاته هذه قواعد أو قوانين أو بديهيات، بل استعمل بدلاً من ذلك مصطلح «الحِكم». غايته أن المشاركين في المحادثة يتبعان هذه الحكم ضمنياً فيتصرفان وكأنهما يتبعان القواعد.

بعد بضع سنوات من محاضرته في هارفرد، اقتنع غريس أن ينشر نص المحاضرة في مقال بعنوان «Logic and Conversation» «المَنْطِق والمحادثة». ورغم أن غريس معروف في أوساط اللُّغويين وعلماء المَنْطِق، فإن مقالته لم تلقَ إلاَّ انتباهاً ضئيلاً من الأوساط التي تعتبر نجاح المحادثة أمراً حاسماً ومهماً. التفسير الأكثر احتمالاً لذلك هو أن مُعْظَم الناس يفترضون أنه إذا كان هناك شيء واحد يفلحون به، فإنه بالتأكيد قدرتهم على الإنهماك في المحادثة وللأسف تشير الدلائل إلى عكس ذلك. فظنك أنك أوصلت رسالتك إلى من وُجِّهَتْ إليه هو أمر شائع، أما حقيقة إيصال رسالتك فهو أمر أقل مصادفة.

سبق عمل غريس نظرية الحالة بأكثر من عقد من الزمن. لكن عمله هذا يوافق تماماً دراسة نظرية الحالة للمحادثة المعروضة في الفصل السابق. من المؤكد أنه لا يمكن أن تتم أو تكتمل أية دراسة للمحادثة دون إلقاء نظرة على ما كان في جعبة غريس من القول بهذا الشأن.

يبدأ غريس بالقول إن المحادثة عمل تعاوني يدخل به مشتركان إثنان لغاية ما. ووضَّح الطبيعة التعاونية للمحادثة بما أسماه «المبدأ التعاوني»:

> «إجعل إسهامك بالمحادثة كما هو مطلوب في المرحلة التي يظهر بها من أجل الهدف المقصود أو باتجاه تبادل الحديث الذي تشترك فيه».

بمعنى آخر «كُنْ متعاوناً». في الفصل السابق وضَّحنا هذه القاعدة في تشبيهنا المحادثة ببناء جدار.

إن المبدأ التعاوني هو مبدأ عام نوعاً ما. فكانت خطوة غريس اللاحقة هي اشتقاق مبادىء أكثر نوعية وهي «حِكمه» وذلك بفحص نتائج المبدأ التعاوني

تحت أربعة عناوين مختلفة هي الكمية، الكيفية، العلاقة، الأسلوب. سأوضح هذه العناوين الأربعة عن طريق أمثلة غير لغوية.

الكمية: إذا كنت تساعد صديقة بتصليح سيارتها، فإن إسهامك يجب أن يكون لا أكثر ولا أقل مما يتطلبه الوضع؛ فمثلاً: إذا احتاجت صديقتك إلى أربعة براغي في لحظة ما، فإنها تتوقع منك أن تسلمها أربعة لا إثنان ولا ستة.

الكيفية: إذا كنت تصنع كعكة مع صديقك، فإن إسهامك بهذا النشاط المشترك يجب أن يكون حقيقياً وغير مزيف. فإذا قال صديقك أحتاج إلى السكَّر فإنه لا يتوقع أن تسلمه الملح.

العلاقة: لنبق في سيناريو صنع الكعكة. إن إسهامك في كل مرحلة يجب أن يكون لائقاً بالحاجة المباشرة لهذا النشاط، فمثلاً: إذا كان صديقك منهمكاً بخلط المواد لا يتوقع منك أن تعطيه رواية ليقرأها حتى ولو كان يرغب بقراءة هذه الرواية في وقت آخر.

الأسلوب: مهما كان النشاط المشترك الذي تنهمك به مع صديق، فإن شريكك سيتوقع منك أن توضح ما هو الإسهام الذي تقوم به، وأن تنفذ إسهامك بسرعة معقولة.

فيما يتعلق بالمحادثة، إن مقولة الكمية تتعلق بِكَمِّ المعلومات الذي يجب أن يُزود به المتحدث. في هذا المجال يصوغ غريس حِكْمَتين:

1. اجعل إسهامك مليئاً بالمعلومات إلى الدرجة المطلوبة.
2. لا تجعل إسهامك مترعاً بالمعلومات أكثر مما ينبغي.

في مقولة الكيفية يذكر غريس لائحة من ثلاث حِكَم، الثانية والثالثة منها هي بمثابة صقل للأولى:

3. حاول أن يكون إسهامك إسهاماً حقيقياً.
4. لا تقل ما تعتقد أنت أنه خطأ.

5 . لا تقل شيئاً لا تملك عنه البرهان المناسب.

في مقولة العلاقة يعطي غريس حِكْمَة واحدة:

6 . كُنْ وثيق الصلة بالموضوع.

لاحظ غريس أنه يجب القيام بدراسات أوسع للحصول على حِكَم أكثر نوعية، تشترط أن يكون المتحدث وثيق الصلة بالموضوع في أية مرحلة من المحادثة.

وأخيراً في مقولة الأسلوب، يصنع غريس لائحة من خمس حِكَم، الأولى عامة يتبعها أربع للصقل مع أنه لاحظ أن لائحة الصقل قد تكون غير كاملة.

7 . كُنْ واضحاً.

8 . تجنَّب غموض التعبير.

9 . تجنَّب الإبهام.

10 . أوجز.

11 . كُنْ منظماً.

كما لاحظ غريس بنفسه أن حِكَمَه هذه ليست قوانين يجب إتباعها، فهي ليست كالبديهيات الرياضية، وإذا كنت تريد القيام بعملية حسابية بأُسلوب صحيح، يجب عليك أن تتبع قواعد عِلْم الحساب. ولكن أي شخص يمكنه الانخراط بمحادثة حقيقية وهامة ومع ذلك يفشل بملاحظة حِكَم غريس المذكورة. هذه الحِكَمُ هي على الأكثر نوع من الالتزام. بكلمات غريس ذاتها: «أود أن أتوصل إلى التفكير في النمط المعياري لممارسة المحادثة ليس فقط شيئاً يتّبعه في الواقع بعضنا أو كلنا، بل إنه شيء من الحكمة لنا أن نتبعه، شيء لا يجب أن نهمله» (تماماً كما ورد في النص الأصلي).

عندما نقول ما لا نعنيه

أحد أكثر الأجزاء إثارة للاهتمام في تحليل غريس، هو مناقشته للاستعمالات التي يضع فيها الناس حكمه خلال أية محادثة عادية. وبشكل خاص استخدم بنجاح حكمه لتحليل ظاهرة منتشرة في المحادثة دعاها (المحادثة الضمنية). وهذه الخطوة تشبه استخدام بديهيات إقليدس لاستنتاج فرضيات حول المثلثات والدوائر.

المحادثة الضمنية هي عندما يقول الشخص شيئاً ويعني شيئاً غير المعنى الحرفي لما قال. فمثلاً: افترض أن نعومي تقول لمليسا «أشعر بالبرد» مباشرة بعد أن دخلت مليسا الحجرة تاركة الباب مفتوحاً على مصراعيه. حرفياً أعلمت نعومي مليسا ببساطة عن حرارة جسمها، ولكن ربما ما عنته هو «الرجاء إغلاق الباب». لم تقل نعومي ذلك فعلاً، بل كان المعنى متضمناً في كلماتها. يستعمل غريس كلمة (يتضمن) عوضاً عن (يلمح) في حالات كهذه. بما أن كلمات نعومي الحرفية لا تلمح بالتأكيد إلى معنى (اغلقي الباب) بأي حس منطقي.

ولنفرض أن مليسا فهمت ملاحظة نعومي على أنها طلب لإغلاق الباب، فتكون قد فهمت ذلك بسبب معرفة ثقافية وليس بسبب المنطق.

نستخدم المحادثات الضمنية طوال الوقت. قد تكون مقصودة من المتحدث أو مختلقة من السامع، فمثلاً: افترض أن مارك التقى بنعومي وقال: «كيف حال السيارة التي أعارك إياها أخوك». فتجيب نعومي: «حسناً، إنها لم تتعطل حتى الآن». سؤال مارك هنا يبدو بسيطاً لدرجة كافية. ولكن ماذا عن جواب نعومي؟ لنفترض أن كلاً من مارك ونعومي يتبع مبدأ غريس التعاوني أي لنقل إنهما انخرطا في محاولة حقيقية لإنشاء محادثة، ولا يحاول كل منهما تضليل الآخر، فماذا يمكننا أن نفهم من كلمات نعومي؟ يفترض أن نعومي تلمح (بطريقة اللف والدوران) أنها لا تتوقع أن تكون سيارة أخيها صالحة للعمل. فهي تُضمِن معنىً لم تقله علناً. كثير من الناس في وضع مارك يأخذون إجابة نعومي على هذا

النحو، ولكن ما هو المنطق وراء هذا الاستخدام الخاص للغة؟ فرغم كل شيء لم تقل نعومي علناً: «سيارة أخي لا يمكن الوثوق بها على الأغلب».

وفقاً للحكم يكون تحليل غريس لمثال مارك ونعومي هو إنه بعد سماع جواب نعومي قد يفكر مارك على النحو التالي:

1. خرقت ملاحظة نعومي حِكْمَة «كُنْ واضحاً».
2. من ناحية أُخرى ليس لدي سبب لأفترض أنها اختارت الخروج عن المبدأ التعاوني.
3. بالنظر إلى الظروف يمكنني اعتبار ملاحظة نعومي البعيدة الصلة بالموضوع مناسبة، إذا وفقط إذا، افترضت أنها تعتقد أن سيارة أخيها ستتعطل على الأغلب.
4. تعرف نعومي أنني سأحل الخطوة الثالثة.
5. وهكذا إن نعومي تُضمّن في كلامها أن سيارة أخيها ستتعطل على الأغلب.

وبالطبع، قليل منا فقط سيقوم بعملية استنتاج مماثلة، ولكن هذه ليست النقطة الأساسية هنا. فعلى نحو مماثل نادراً ما يستشير الناس بديهيات المَنْطِق عندما يعرضون جدلاً منطقياً، ولكن هذا لا يمنع عالم المَنْطِق من تحليل ذلك الجدل وفحص صحته بالتثبت من أنه يتطابق مع قواعد المَنْطِق.

هدف تحليل مثل تحليل غريس هو التزويد بشرح علمي مبني على افتراضات بدئية. إحدى الطرق التي يمكن إتباعها لمحاولة فهم كيف أوصلت كلمات نعومي ذلك المعنى هي بتخيل أن مارك سُئل هذا السؤال: «كيف توصلت إلى هذا الاستنتاج؟».

معظم الناس في مكان مارك ربما يجيبون بشرح يشبه الشرح المذكور

سابقاً، ولكن قد يكون شرحهم هذا موجزاً أكثر، ولا يستخدمون به مصطلحات غريس التقنية.

ومع أن غريس لا يطلب أن يملك الناس إدراكاً واعياً لحكمه، فإن مناقشته للمحادثات الضمنية ترسخ قضية قوية، وهي أن الحِكَم تحيط بجزء من البنية المجردة للمحادثة وتمكن في النهاية النحويين من تزويد مُرْضٍ لشروح تالية لاستهلالات المحادثة.

وفقاً لغريس لنفترض مشتركاً في محادثة يدعى بيل يتحدث مع دوريس، أنه قد يفشل بتحقيق حِكْمَة من هذه الحِكَم بطرق مختلفة ومنها:

1. قد يخرق بيل بصمت وتكتم حِكْمَة ما، إذاً قد يضلل بيل دوريس في بعض الحالات.
2. قد يختار بيل عدم اتباع كل من الحكم والمبدأ التعاوني، فيوضح أنه لا يريد أن يتعاون بالطرق التي تقتضيها الحكم كأن يقول مثلاً: «لا أستطيع أن أقول المزيد، شفتاي مختومتان».
3. قد يواجه بيل تضارباً. فمثلاً يجد أنه من المستحيل أن يحقق حكمة الكمية (أن يعطي الكم المطلوب من المعلومات) وحكمة النوعية (أن يملك برهاناً ملائماً على ما يقول).
4. قد يهزأ بيل بحكمة من الحكم أو يفشل بشكل صارخ في تحقيقها، وعلى افتراض أن بيل كان يستطيع أن ينفذ حكمة دون أن يخرق أخرى، فإنه لم يختر ذلك وإن فشله في تنفيذ الحكمة كان صارخاً جداً إلى حد أنه لم يحاول التضليل، فعلى دوريس أن تجد طريقة لتصلح ما قاله بيل فعلاً، مع افتراض أنه كان محافظاً على المبدأ التعاوني.

هذا البند الرابع يعتبره غريس أكثر الحالات نموذجية لإنشاء محادثة ضمنية.

التضمينات في العمل

لننظر إلى أمثلة أُخرى مأخوذة من المحادثات اليومية الضمنية، بعض هذه المضامين لم يخرق أية حِكْمَةٍ. لنفرض مثالاً أن روجر يسوق سيارته نحو شرطية ويقول لها: «قد نفد وقودي تقريباً»، فتجيب الشرطية قائلة: «هناك محطة وقود عند الزاوية».

نظراً لحِكْمَةِ «كُنْ وثيق الصلة بالموضوع» يمكن لروجر أن يستنتج أن محطة الوقود مفتوحة للزبائن. وعلى عكس سيناريو محطة الوقود هذا، يحوي المثال الآتي خرقاً ظاهراً لحكمة «كُنْ وثيق الصلة بالموضوع» بطريقة واضحة جداً، وذلك لإنشاءالمحادثة الضمنية المقصودة.

يقول آرثر: «لا يبدو أن بيل لديه رفيقة هذه الأيام» فتجيب سوزان: «لقد كان يمضي الكثير من الوقت في دنفر مؤخراً». إن جواب سوزان يخرق حكمة «كُنْ وثيق الصلة بالموضوع» إلا إذا قصدت من جوابها أن تُضمّنه حقيقة أن بيل له رفيقة قي دنفر أو أنها تظن ذلك وتريد من ملاحظتها أن تقترح أن هذا هو سبب زياراته المتكررة إلى دنفر. مثال من نوع آخر: إفترض أن غريغ كان يخبر مليسا بنيته على زيارة أوروبا وذكر أنه يود أن يزور صديقها يانيس، فيسأل: «أين يعيش يانيس؟» فتجيب مليسا: «في مكان ما في اليونان». من الواضح أن غريغ كان يسأل عن إسم الموقع الذي يعيش فيه يانيس ليرى ما إذا كان بوسعه أن يزوره. هنا جواب مليسا خرق حكمة الكمية: «اجعل إسهامك مليئاً بالمعلومات إلى الدرجة المطلوبة»، وعلى افتراض أن مليسا لم تخرق المبدأ التعاوني، فإن النتيجة التي يمكن لغريغ أن يستنبطها هي أن مليسا خرقت حكمة الكمية، لأنها إذا قالت أكثر من ذلك ستخرق حكمة الكيفية: «لا تَقُل شيئاً لا تملك عنه البراهين المناسبة»، بمعنى آخر استنتج غريغ أن مليسا لا تعرف المدينة أو البلدة التي يعيش فيها يانيس. بالطبع، وبافتراض أن مليسا أعطت كل

المعلومات التي تعرفها قد يستنتج غريغ أن مليسا لا تستطيع أن تعطي إجابة أكثر تحديداً.

قد يهزأ الأشخاص أحياناً بالِحكم ليحصلوا بالتضمين على تبادل معلومات يفضلون لسبب ما أن لا ينصُّونه بشكل صريح مثلاً: لنفترض أن الأستاذة أليس سميث تكتب شهادة تقدير لطالبها اللُّغوي مارك جونز الذي يسعى إلى منصب أكاديمي في معهد مساشوستش للتكنولوجيا، فتكتب رسالة تثني فيها على مظهر جونز اللائق ودقته وخط يده وبراعته في رياضة كرة المضرب، ولكنها لا تذكر أي شيء عن إمكانياته كطالب في اللُّغَوِيات. من الواضح أن الأستاذة سميث تهزأ بحكمة وثاقة الصلة بالموضوع. والمعنى المتضمن هو أن الأستاذة سميث لا تملك شيئاً جيداً لتقوله عن إمكانية جونز في مجال اللُّغويات، ولكنها مضطرة أن تدوِّن رأيها كتابة.

غالباً ما نتوصل إلى السخرية بخرق حِكْمَة الكيفية: «لا تَقُلْ ما تعتقد أنه خطا». فمثلاً: افترض أن جين تقول لريتشارد كيف خذلتها صديقتها سالي، فيعلق ريتشارد «حسناً، لا شك أن سالي صديقة عظيمة». والمعنى المتضمن هنا هو أن سالي صديقة سيئة.

الإستعارة هي تأثير لُغَوِي آخر يمكن التوصل إليه عبر الهزء من حكمة الكيفية، فمثلاً إذا قال توم لزوجته: «أنتِ قشدة قهوتي» فالمعنى المتضمن هنا هو أنه يعتقد أن زوجته هي تكملة حياته.

خرق حكمة الكيفية «لا تقل ما تعتقد أنه خطأ»، يمكن أن يستخدم أيضاً للحصول على تأثير أقل من المراد في الجملة مثال على ذلك: نشب شجار كبير بين بربارة وجورج، جعل بربارة تقذف الأواني الفخارية في كل أرجاء المطبخ. وفي الصباح التالي، اقتربت بربارة من جورج وقالت: «لقد كنت البارحة

منزعجة قليلاً». المعنى المتضمن هنا هو أن بربارة كانت كما يعرف جورج جيداً غاضبة جداً. في هذه الحالة فَهِمَ جورج كلماتها على أنها اعتراف أو اعتذار من تصرفها.

حتى الآن لم يتطرق أي من هذه الأمثلة إلى حكمة الأسلوب، وهنا أعرض ثلاثة أمثلة على ذلك:

يهزأ أحياناً أهل الأطفال الصغار بحكمة الأُسلوب «تجنب غموض التعبير»، وذلك للتحدث فيما بينهم بأسلوب لا يفهمه الصغار كأن يقولوا: «هل جلبت، ما تعرف ما هو، وأنت في طريقك إلى البيت؟».

يخرق السياسيون أحياناً أسلوب «تجنَّب الإبهام» وذلك لتضليل جمهورهم. في قضية تشهير في بريطانيا منذ عدة سنوات، وَعَدَ رئيس الوزراء بأن لا يتخذ فعلاً معيناً بدون «موافقة الشعب البريطاني»، وأخذ معظم الناس قوله هذا على أنه وعد للاستفتاء، ولكن في النهاية حسم الأمر بصوت واحد في مجلس الشعب. وأثناء الغضب الذي تلا ذلك بيَّن رئيس الوزراء أنه في ديمقراطية برلمانية يعادل ذلك «الموافقة الجماعية».

ليس في المثالين المذكورين معنى متضمن، ومع ذلك إفرض أن جون قال لسالي: «ماري تصدر سلسلة أصوات على البيانو تشبه المنزل في المرعى» هذا يخرق حكمة الأسلوب «أوجز»، والمعنى الضمني واضح وهو أن عزف ماري على البيانو لم يكن جيداً.

هذا مثال أخير عن المعنى المتضمن. وفيه تخرق حكمة «كُنْ وثيق الصلة بالموضوع». المشهد هو حفلة كوكتيل في المركز الرئيسي لشركة ما تقول تيريزا دون أن تعرف أن المدير التنفيذي الرئيسي هو على مرمى السمع: «إن هذا المدير نذل مغرور»، فيجيب ماكس بلهجة خاصة مقصودة: «أين قلت أنك

ستقضين إجازتك هذا العام؟»، ولأن تيريزا فتاة ذكية ستدرك أن ماكس يخرق حكمة «وثاقة الصلة بالموضوع» لسبب ما. وهنا كي يغطي حقيقة أنها ارتكبت للتو زلة مهنية رهيبة، بقليل من الحظ وبمساعدة ماكس قد تتدبر أمرها في الفرار من هذه الزلة وبالحفاظ على وظيفتها.

خلاصة

صاغ غريس مجموعة من الحِكَم التي تصف الطريقة التي يجب على المشتركين في المحادثة أن يبنوا وفقاً لها إسهامتهم، وذلك لإيصال مقاصدها. بنى حكمه على مبدأ واحد هو المبدأ التعاوني. تنشأ الحكم الفردية من تفحص نتائج المبدأ التعاوني وفقاً لأربعة عناوين: الكمية، الكيفية، العلاقة، الأسلوب.

يمكن أن تستخدم حكم غريس لشرح المَنْطِق الذي بواسطته يستخدم المشتركان في المحادثة الكلمات لإيصال المعلومات. إحدى الوسائل الخاصة التي يبحثها غريس بهذه الطريقة هي المحادثة الضمنية التي وفقاً لها يقول المتحدث شيئاً ويعني شيئاً آخر.

obeikandl.com